كلمة أخيرة

تبقى بعد ذلك كله نقطة أخرى وهى فضل الحضارة المصرية على غيرها من الأمم - فما من شك فى أن المصريين القدماء قد حققوا الكثير من التقدم فى مختلف ميادين الفكر والفن والعلم والأدب والصناعة والزراعة .

ولا شك أيضاً فى أن ثقافتهم قد وصلت إلى غيرهم من الشعوب ولكن .

ما الدين الذى تَدين به الإنسانية لمصر ؟

وما الدور الذى قامت به مصر فى تقدم الجنس البشرى ؟

وما أثرها المباشر على الحضارة الغربية بوجه عام ؟

الجواب عن هذه الأسئلة يحتاج إلى قاموس كامل ، بل لأكثر من ذلك . ويكفينا أن نشير فقط إلى بعض تلك الأفضال .

● **فى ميدان الكتابة :**

توصل المصريون القدماء إلى اختراعها قبيل الأسرة الأولى أى قبل أكثر من سبعة آلاف وخمسمائة سنة . واستخدموها فى حياتهم اليومية وتركوا وراءهم الكثير مما ساعدنا على معرفة الحياة التى يحيونها فى ذلك العهد البعيد - فعلى جدران مقابرهم نرى ما ينتجونه من مصنوعات مختلفة ، كما نقرأ فى ألقاب رجالهم الكثير الذى يدلنا على تقدم فن الإدارة فى البلاد والاهتمام بشكل خاص بنظم الرى وحفر القنوات وكل ما من شأنه تقدم الزراعة وأساليبها ، وقسموا السنة الشمسية ثلاثة فصول وقسموا هذه الفصول مجتمعة إثنى عشر شهراً

وقسموا كل يوم أربعاً وعشرين ساعة . كانوا أيضاً أول من اخترع المزولة والساعة المائية لتقسيم ساعات النهار وساعات الليل . ولكن إلى جانب هذا التقدم فى الزراعة وأساليبها وحساب الأيام والسنين ، علاوة على ميادين الطب التى تقدم فيها المصريون منذ عهد بعيد إذ نعرف على الأقل منذ منتصف الأسرة الرابعة أى منذ أكثر من ٥٥٠٠ سنة أنهم عرفوا التخصص فى فروعه المختلفة ، فكان هناك أطباء مختصون بالعيون وآخرون مختصون بالأمراض " الباطنية ، كما استطاع أطباء الأسنان أن يقوموا بإجراء بعض العمليات الدقيقة فى الأسنان .

وكان اختراع المصريين لورق البردى واستخدامه فى الكتابة أثر كبير فى تقدم العلوم ، إذ حرص المصريون منذ الدولة القديمة على عمل نسخ من المؤلفات الهامة فى مختلف العلوم والاحتفاظ بها ، فضلاً عن استخدامها فى رسائلهم وأعمالهم الإدارية .

ولقد لعب **البردى** دوراً كبيراً فى نشر العلوم والآداب فى العالم القديم ومازال اسمه على لسان كل غربى عندما يشير إلى الورق ، فإن اسمه فى اللغات الغربية مشتق من كلمة «**بايبروس**» وهو الاسم اليونانى لهذا النوع من النبات (البردى) الذى استخدم قدماء المصريين أليافه لصنع البرديات .

وليعرف كل غربى أن أبجديته التى يستخدمها كل يوم فى كتابة رسائله أو استذكار كتبه تسمى الحروف اللاتينية وأنها مأخوذة عن الرومان ، ويعرف بعضهم أن الرومان قد أخذوها بدورهم عن اليونان بل ربما عرف بعضهم أيضاً أن اليونان بدورهم قد أخذوها عن الفينيقيين وهم شعب سامى الأصل كان يقطن الساحل السورى .

ولكن الذى يتتبع هذا الموضوع أكثر من ذلك يصل إلى نتيجة هامة **وهى**

أن الابجدية الفينيقية . . استمدت بعض أصولها من بضعة مصادر – أهمها الكتابة المصرية . . وقد عثر فى شبه جزيرة سيناء على نقوش عرفنا منها أصول كثير من الحروف الفينيقية وصِلَتها بالكتابة المصرية .

وقلما يدرك الغربى الذى يقف معجباً أمام الآثار المصرية يتطلع إلى ما عليها من كتابة تصور بعض الأشياء المستخدمة فى الحياة وصور الطيور والحيوانات ، أن بعضها هو الأصل الذى نُقِلَتْ عنه بعضُ حروفه التى يستخدمها كل يوم ، والفضل فى هذا إنما يعود إلى ذلك المصرى القديم الذى عاش منذ آلاف السنين على ضفاف النيل .

● ويقف الزائر أمام الهرم الأكبر أو غيره من الآثار ، ويتطلع بإعجاب إلى عظمته ودقة بنائه وسيطرة القدماء على نحت الأحجار ونقلها ، لكنه قلما يذهب تفكيره إلى أبعد من ذلك – فلو لم يتقدم المصريون القدماء فى فنون الرياضيات والهندسة والفلك واستخدام المعادن منذ أجيال عديدة قبل تشييد الهرم لما تمكن معماريو «زوسر» و«سنفرو» و«خوفو» و«خفرع» من تشييد أهرامهم . وقد عثر على كثير من البرديات – ولو أنها من عصور متأخرة عن الدولة القديمة وفيها مسائل رياضية وهندسية مختلفة وحلولها .

آمنت مصر فى بداية حياتها بسياسة العزلة . واطمأنت إلى سلامتها داخل حدودها ، ولكن هذه السياسة لم تستمر طويلاً وسرعان ما بدأت مصر تتصل بغيرها وتتعرف على ما يحيط بها من بلاد ، فكان رحّالتها أول رحالة يذهبون إلى قلب إفريقيا ليعرفوا الشعوب التى تعيش إلى الجنوب منهم . وما هى إلا دورات من الزمن حتى أخذت الثقافة المصرية تجد طريقها إلى قلب هذه القارة . ومازالت آثار تلك الحضارة باقية بين بعض تلك القبائل ومازال أهلها يمارسون

كثيراً من العادات والشعائر المصرية القديمة حتى اليوم ، ولكنَّ أثر مصر فى الحضارة العالمية كان أبعد وأعمق عندما اتصلت بالبلاد الواقعة إلى الشرق منها .

ألقت مصر عن كاهلها نير الهكسوس . وكأن هذا الاحتلال الذى خنق البلاد وأوردها موارد الذل والهوان ، كان هو الباعث لها على نفض غبار الزمن عن كاهلها وخروجها وهى ممتلئة قوة وفتوة لتثأر لنفسها ، وتبعد الشر والخطر عن حدودها قَدْرَ ما تستطيع ، فأسست إمبراطوريتها واتصلت بجميع مدنيات الشرق القديم وجهاً لوجه فأعطت ما أعطته وأخذت ما أخذته . لقد تركت الديانة المصرية ، والحكم والعادات والفنون المصرية ، أثراً كبيراً فى تلك البلاد واستمر هذا الأثر قرونا عدة بعد زوال نفوذ مصر السياسى من تلك الأقطار .

● **ولمصر فضل آخر لا يمكن إغفاله** . فقد أشرنا أكثر من مرة فى صفحات الأيام – إلى مقابر طيبة ومعابدها وإلى ما يوجد على جدرانها من مناظر قدوم ممثلى الشعوب المختلفة لتقديم الجزية والهدايا إلى الجالس على عرش مصر . إننا نرى فى تلك المناظر شعوب جزر البحر الأبيض المتوسط وآسيا الصغرى والشاطئ الفينيقى وبلاد الرافدين وفلسطين وبلاد بونت والسودان ، وبعد ذلك مناظر شعوب البحر من الليبيين وغيرهم من الشعوب التى تحالفت معهم .

نرى ممثلى تلك الشعوب يلبسون ملابسهم الوطنية ومعهم صناعات بلادهم المختلفة وأسلحتهم وخير ما كانت تخرجه تلك البلاد من محاصيل أو مصادر الثروة المختلفة من المعادن والأحجار الكريمة وغيرها .

لقد زالت من كثير من تلك البلاد آثار تلك العصور ، ويعتمد المؤرخون على الآثار المصرية لدراسة تلك الفترة الموغلة فى القدم ، فتمدهم بالكثير من المعلومات .

وكان نفوذ مصر الثقافى والتجارى فى فلسطين والشاطئ الفينيقى كبيراً منذ أقدم العصور ، وكان للديانة المصرية والأدب المصرى والغناء والموسيقى أثر مرموق فى جميع الأزمنة . وقد زاد هذا الأثر فى أيام الإمبراطورية . وعندما قام أخناتون بثورته الدينية ودعا إلى عبادة إله واحد فقط وهو الإله آتون ، القوة الكامنة فى قرص الشمس ، كانت تلك الدعوة هى الصيحة الأولى المعروفة فى تاريخ البشرية ، التى تقرب من التوحيد الذى جاءت به الكتب السماوية فيما بعد .

ومهما قيل عن أخناتون بأنه كان مهملاً فى أمور الإمبراطورية فإن الأناشيد التى تغنى بها فى مدح آتون ظلت أدباً رفيعاً سامياً تتناقله الأجيال ، ويعتبر نشيد أخناتون الكبير الأصل الذى نقل عنه الجزء الأكبر من مزمور ١٠٤ ، كما أن بردية « **أمنموبى** » كانت أيضاً الأصل الذى نقل عنه جامع سفر الأمثال . وبعبارة أخرى كان لمصر فضل لا ينكر على العبرانيين فى تكوين جانب من ثقافتهم عندما بدءوا فى القرن الثامن قبل الميلاد فى كتابة بعض أجزاء من كتاب العهد القديم .

ولم يقتصر فضل مصر على نشر الثقافة والعرفان فى البلاد المجاورة لها بل تعدتها إلى آفاق أبعد – وقد كان الفينيقيون يذهبون إلى أقاصى بلاد العالم المعروف ، ويجوبون بحاره بسفنهم المحملة بالسلع التجارية وأكثرها من المصنوعات المصرية ، والسلع المصرية سواء ما كان يصنع منها فى مصر نفسها أو ما كان يقوم الفينيقيون بتقليده فى بلادهم ، وهذا يفسر لنا العثور على كثير من الآثار المصرية فى بلاد كثيرة فى أواسط آسيا وفى أوروبا ، كما يفسر لنا أيضاً انتشار بعض مظاهر وأوضاع الفن المصرى فى بلاد بعيدة عن مصر مثل الساحل

الشرقى من الهند وبعض جزر الملايو ، بل ربما أبعد من ذلك . ويعتقد المتعلمون فى الغرب أنهم مدينون بالشىء الكثير فى مدنيتهم الحالية لمصدرين أولهما اليونان والرومان ، والثانى : الكتاب المقدس .

فأما **الكتاب المقدس** فهو نفحة من نفحات الشرق الأدنى ، وقد استمد الكثير من أصوله من بلاد الرافدين ولكنه استمد أيضاً الكثير من مصر ، لأن ثقافتها كانت منذ آلاف السنين هى العنصر السائد فى فلسطين وما جاورها أما عن اليونان فقد تعلموا الكثير من مصر واعترف الكثيرون ممن وضعوا أسس تقدمهم فى مختلف فروع الحضارة كالقانون والطب والرياضيات والموسيقى والمسرح والفلسفة ، أنهم تعلموا ما نشروه بين مواطنيهم من الكهنة المصريين عندما أقاموا معهم وتتلمذوا عليهم فى مصر عدة سنوات ، ولم يقتصر فضل مصر على ذلك بل إن روما تعلمت من أثينا كما تعلمت من مصر الشىء الكثير ، ويكفى أن نذكر أن فضلها معترف به فى جميع الميادين حتى فى ميدان الدين ، فقد كان للإلهة المصرية «إيزيس» — معابد عدة فى روما وغيرها من المدن الرومانية فى القرن الأول الميلادى فى أوروبا وكان يقوم على خدمة تلك المعابد كهنة من المصريين يساعدهم كهنة من أبناء البلاد . وكانت مواكب هذه الإلهة وتمثيل قصتها كل عام ذات أثر كبير على أفكار الناس عامة فى ذلك العهد ، بل إن التمثيليات التى كانت تقام سنويا فى أعياد الآلهة وبخاصة تمثيلية إيزيس وأوزيريس التى كانت تمثل منذ أربعة آلاف سنة ، وتعتبر أقدم المسرحيات فى تاريخ العالم ، كانت الأصل للتمثيليات الدينية فى العصور الوسطى فى أوروبا ، بل لبعض المواكب الدينية فى العصر الحاضر.

لقد قام المصريون منذ نشأة حضارتهم بدور هام فى تاريخ البشرية ، فقد

اخترعوا الكثير من المخترعات التى ساعدت على تقدم المدنية ، وقاموا بدورهم فى نشر حضارتهم بين من جاورهم من الشعوب . لقد أعطى المصريون غيرهم كما أخذوا منهم أيضاً ، ومرت عليهم أيام عز وسؤدد كما مرت عليهم أيام ضعف وهوان ، ولكن الروح المصرية بقيت دائماً سليمة فى جوهرها ولكن لكل زمن ملابساته الخاصة به ، وما كان حسناً لمصر قبل ألف سنة أو سبعة آلاف سنة لا يمكن أن يظل حسناً أو صالحاً على الدوام . إن الشعوب تبقى والمدنيات تزدهر طالما كانت مرنة وتستطيع أن تلائم نفسها مع غيرها ، وأن تتشكل حسب ما يجد عليها من مؤثرات . وإذا كان المصريون اليوم يحتفون بتاريخ بلادهم بصفة عامة ويعتزون بتاريخ مصر الفرعونية بصفة خاصة ، فما ذلك إلا لإيمانهم بأن أجدادهم القدماء قد حققوا الكثير من معجزات المدنية فى ذلك الوقت المبكر من تاريخ البشرية . وأنهم أسهموا فى تشييد صرحها ، وهذا مما يدعو إلى الفخر والاعتزاز .

إننا مازلنا نعيش فوق تلك الأرض المحبوبة التى عاش فوقها آباؤنا ، وليس فى تلك الحقول الخضراء شبر واحد لم يمتزج ثراه بعرق أولئك الأجداد جيلاً بعد جيل منذ آلاف السنين . وهذا النيل المبارك الوهاب ، مازال يسير بين الشاطئين كما فعل منذ عشرات القرون . وتلك الآثار المنتشرة فى الوادى ، وتلك الأهرام والمعابد التى غالبت الزمن وظلت ترفع هاماتها ، وتطل علينا لتذكرنا بمجد من شيدها ، إنما أصبحت جزءاً متمماً لهذا الوادى السعيد ، ولن يتم حبنا لهذا البلد العزيز إلا إذا درسنا تاريخه القديم ، وسرنا مع القدماء جيلاً بعد جيل لنعرف ما مر على هذا الوطن من أحداث .

وكم من أسر حكمت وزالت ، وكم من غزاة جاءوا وذهبوا ، وكم من عتاة

حكموا ثم اختفوا مشيعين باللعنات ، وكم من حكماء وفنانين عاشوا فقراء ولكنهم تركوا ثروات خالدة بعد موتهم . لقد أصبحت المعابد الكبيرة آثاراً يزورها الناس ونقلت أكثر تماثيل آلهتها إلى المتاحف المختلفة فى أرجاء العالم . ولكن بالرغم من هذا كله فإن من يزورها يتعلم الشيء الكثير .

لقد سكتت أصوات الكهنة والكاهنات ، وانقطعت المواكب وموسيقى العازفين . لكن صوت التاريخ مازال يتردد بين أبهاء هذه المعابد وحجراتها بل بين خزائنها يهتف بمجد مصر ، وكل حجر نراه فيها ليس إلا كلمة أو سطراً أو صفحة فى ذلك الكتاب الكبير الضخم الذى سطره المصريون بأنفسهم .

إن روح مصر القومية سليمة قوية ، وستظل دائماً وثابة متعطشة للتقدم لقد استمدت مصر شخصيتها الحقة من شخصية أرضها ونيلها وزالت الدول وزال الغزاة وبقيت مصر وبقى الشعب المخلص لتقاليده وتاريخه منذ آلاف السنين ، وستظل للمصريين تقاليدهم المجيدة طالما بقى النيل جارياً بين شاطئيه يفيض بالخير والبركات ، وهو باق بإذن الله إلى أبد الآبدين .

ولقد أثبت المصريون فى كل زمان أنهم يدركون قدر أنفسهم ويدركون التبعات التى ألقاها على كاهلهم مركزهم الجغرافى فى هذا الجزء من العالم وأنه مهما تقلبت على مصر الأحداث ، أو تعرضت لحلو الأيام ومرها فقد ظلت دائماً سليمة العنصر ، وبقى شعبها حيا لأنه جدير بالحياة ،